

الصخرة: رواية عن القدس في القرن السابع

The Rock: A Tale of Seventh-Century Jerusalem

Kanan Makiya

New York: Pantheon Books, 2001. 349 pages. \$26.00 cloth.

ليحترس القارئ. هذه رواية تاريخية متعبة ومتقعة الأسلوب بحيث أن عنوانها [الصخرة] موافق تماماً لتأثيرها المرهق. سيحتاج القارئ إلى درع ثقيلة لتحمل تكلفتها وأسلوبها المتقعر ورسالتها السياسية المشوشة – والشريفة. إنها ليست "رواية" البتة، وإنما هي أشبه بسلسلة من الحوارات والمواظم المملة التي يلقيها ابن وهمي لكعب الأشراف، وهو يهودي شبه أسطوري اعتنق الإسلام في بداياته، موضوعه في قالب روائي. والسؤال الفوري الذي يطرح نفسه هو: لماذا يزعم المرء نفسه بخليط من الأساطير المبتكرة في حين يستطيع الآن التمتع بقراءة الأساطير والقصص الأصلية في عدة مختارات أدبية وترجمات؟

يحظى كنعان مكية، من جامعة برانديز، بشهرة واسعة كمعارض عراقي تتودد إليه شخصيات واشنطن كثيراً. وعند كتابة هذه السطور كان مصاباً بخيبة أمل موقته من الخطط الأميركية الحالية للحكومة المقبلة في العراق. غير أن "الصخرة" تهدف بوضوح، بين ما تهدف إليه، إلى توسيع خبرته المنشودة كثيراً نحو التاريخ وأهمية القدس. وإن كان القارئ في شك تجاه تلك الخبرة، يأتي كل فصل غير منتظم من هذه "الرواية" كاملاً مع تعليقات دقيقة ومفصلة تحت عنوان "المصادر"، وفيها يشرح مكية كيفية بناء روايته، وما هي المصادر التي استخدمها، وكيف ربطها معاً. فهذه ليست رواية تاريخية تطفو بحرية على طريقة أمبرتو إيكو أو نورمان ميلر أو روبرت غريفز. إنها رواية يجب أن يكون قارئها على دراية تامة بأوتارها التاريخية، بمساعدة ملاحظات شبه أكاديمية وفيرة. وتماشياً مع الممارسة التاريخية، يبلغنا مكية المعلق أين وجد لبن البناء التي استخدمها بدقة، ويصدر أحكاماً على الكتابات الثانوية (كأن يقول: هذه المقالة مهمة جداً، وهذه معيبة)، ويتوج ذلك كله بملحق قصير بعنوان "ملاحظة تاريخية عن كعب والصخرة"، وفيه يدخل النزاع كمؤرخ ثقة لا كقاص.

ولمن تنتمي هذه الصخرة الرائعة؟ هذا هو السؤال الذي تقوم "الرواية" عليه. قد يستنتج المرء من النثر الكئيب أن الراوي مكية يجد أن الله هو مالكها (ص 270 مثلاً). لكن هناك القضية الصغيرة للاحتلال الإسرائيلي للقدس. وهذا موضوع يفضل تركه

طبعاً للملاحظات. وفي حال كان القارئ غليظ الذهن ولم يفهم المراد، يستشهد مكية المفسر، من دون أي تعليق، بوزير إسرائيلي "شديد التطرف" يزعم أن الحقوق الإسرائيلية تتفوق على الحقوق الإسلامية في "جبل الهيكل" لأن الملك داود دفع ثمنه أصلاً (ص 303)، في حين أنه يوجه تأنيباً شديداً إلى كاتب صغير مسلم يصف كعب بأنه "صهيوني" (ص 282). وعلى الرغم من أن آراء هذا الكاتب الجاهلة ليست "نموذجية"، وفقاً لمكية، فإنها "تلمح إلى العقلية الجريحة والدفاعية الحديثة" السائدة بين المسلمين تجاه دولة إسرائيل. ويجب أن نتوجه بالشكر إلى س. ف. نايبول لأنه وفر لمكية وأمثاله نعوتاً مثل "جريح" لوصف أسماء مثل "عقلية". هل لنا أن نستنتج أن مصطلح "العقلية" أخذ ينسل بهدوء ليحل محل مصطلح "العقل"، كما في "العقل العربي" لأنه لم يعد صحيحاً من الناحية السياسية؟

ها هي ذا رواية تامة عن القدس في القرن السابع، مع ذيل مطول من التعليقات والملاحظات. إذا بدأنا بالرواية نجد أنها مرتبة في فصول مكتلة تمتد من ثلاث أو أربع صفحات إلى عشر صفحات أو نحو ذلك. ويستغرق كثير من هذه الفصول الصغيرة في الحوارات بين كعب وابنه الراوي، أو بين كعب والخليفة عمر، تكون فيها الصخرة الموضوع الرئيسي. ويفترض أن يكون الأسلوب قروسطياً: "أخبرنا القصة يا كعب"، أو "الله الذي جعل كلام الفصحاء يعجز عن وصف جماله." ويتناثر هذا الكلام القروسطي التهكمي بين الكلام الشديد الحداثة: "الذين يعرفون مقدار عظمة الصحراء المغوية يدركون كيف يُختبر إيمان أبنائها يومياً بأن يحكم عليهم بالعيش فيها." وتأتي الاستعارات المختلطة كثيفة ومتسارعة (مثل: "دشن محمد زلزالاً في المدينة في ذلك اليوم"). وتكون النتيجة تكلفاً يتنافر مع النثر في كل صفحة، كما لو أن مخرباً معاصراً يخربش على درج قديم. ويسلط هذا التكلف الضوء على الرسالة السياسية المركزية للرواية: إبراز الدين الذي يدين به الإسلام لميراثه اليهودي، حيث تقوم دولة إسرائيل المعاصرة بدور حارسة هذا الميراث. ويرى مكية أن مساهمات اليهود الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام "أغفلها المسلمون المعاصرون إلى حد كبير بسبب خشيتهم أن يقوض هذا الإقرار صدقية دينهم" (ص 281). وإلى جانب العقلية الجريحة للمسلمين، يخشى المسلمون أيضاً أن يفقدوا شرعيتهم الدينية. بل إن عمر، كما قيل لنا، "أدار ظهره للصخرة" (ص 266). ومن ثم تحولت "مدينة الصخرة" إلى "منجم للريح في هذا العالم، لا العالم الآخر" (ص 266). في تلك الأثناء، "ينتمي الشيء إلى من ينشغل أكثر بتذكره" (ص 266؛ ولا يستحق الأمر عناء التخمين فيمن هو هذا الشعب). ويترك للقارئ أن يستنتج أن المسلمين فقدوا حقهم الديني في الصخرة، إلى جانب كل مصائبهم الأخرى. الرواية، كرواية، عسيرة القراءة. أما تعليقاتها المذيلة فمسألة مختلفة، ويجب الحكم عليها مثلما يريد مكية نفسه أن يحكم عليها، أي كقطعة صريحة من الكتابة

التاريخية. هنا نجد أن الافتراضات الطائشة للمؤلف، والتعميمات، والتأكيدات التي لا أساس لها، والمزاعم التي تطلق من دون أي تأييد من المصادر، والتأريخ السخيف، والأخطاء الكثيرة في الترجمة والفهم، والنقل الكتابي الرديء (الذي يشكر عليه مكية شخصاً يحمل الاسم السيئ الحظ فدج)، كثيرة جداً ويصعب إيرادها جميعاً؛ لكن فيما يلي أحد الأمثلة: إن بناء قبة الصخرة "ربما اعتقدوا أنهم يعيدون بناء هيكل سليمان" (ص 278). ويؤكد مكية أن بناء قبة الصخرة لا علاقة له بمسرى محمد (ص 324)، لكنه يعكس تصور عبد الملك لسليمان "كحاكم مثالي مسلم" (ص 327). غير أن هذا الادعاء تناقضه على الفور عبارة أن "من المتعذر معرفة ما كان يدور في خلد عبد الملك من خلال المصادر" (ص 328). لذا يخلص المرء، سواء أحب أم كره، إلى أن الصخرة هيكل سليمان. وعلى الرغم من الدليل التاريخي على وجود مسيحي طاغ في فلسطين والشرق الأدنى عامة، خلال القرن السابع، فكيف يستطيع المرء أن يناقش ادعاء مكية أن "الدليل الذي لا لبس فيه يشير إلى أن المسلمين كانوا ينشدون التراث اليهودي بلهفة"؟ (ص 281). وكيف يمكن أن يكون كعب، الذي يزعم أنه توفي سنة 651، قد "حظي باحترام كبير" من جانب عبد الملك الذي حكم بين سنة 685 وسنة 705؟ (ص 279). وكيف يسعنا أن نحاجج في أن "أقدم اسم عربي للقدس" ليس بيت المقدس وإنما إيلياء؟ (ص 291).

وهكذا يمضي الكتاب، مقولة خادعة تلي مقولة زائفة، و"واقعة" متشابكة مع إعادة تمثيل خيالية وأخطاء صريحة وتزوير متعمد. وإذا مورس الضغط على المؤلف، فسيزعم من دون شك أنه روائي. لكن من الواضح أن رواية القصص ليست مهنته الوحيدة، نظراً إلى رسالته السياسية المضمرة.

طريف الخالدي

أستاذ الدراسات العربية والإسلامية

في الجامعة الأميركية في بيروت

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>